والتي طالما اتخذها غرضًا لأهوائه الآثمة، وابتغى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة، وحاربها كما يحارب العدو، فلم يستطع أن يقهرها، ولم تستطع أن تقهره، وأقاما معًا في شيء من الموادعة لا يستطيع عنها سلوًّا، ولا تستطيع عنه انصرافًا، لا يشير إليها من آماله ومطامعه بقليل أو كثير، ولا تلقاه هي من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد في حاجة إلى المقاومة أو الامتناع.

أأكذب نفسي أم أصدِّقها؟ أأصارحها بالحق أم أموِّه عليها الأمر؟ لقد رضيت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان، واغتبطت بها نفسي أشد الاغتباط، وارتاح إليها ضميري هذا المتعب المعذب الذي كان في حاجة إلى أن يرتاح، ولكن أظلَّ قلبي مطمئنًّا ونفسي مغتبطة وضميري مرتاحًا بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور في مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين؟ ألم أشعر شعورًا غامضًا بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه الموادعة قد اتصلت أكثر مما ينبغي أن تتصل؟ ألم أجد في أعماق ضميري شوقًا إلى تلك الحرب وجنوحًا إلى ذلك الخصام؟ ألم أحس في دخيلة نفسي أن حياء هذا الشاب قد يكون لونًا من الصدِّ، وأن احتشامه قد يكون فنًّا من الإعراض؟ بلى! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسي أشد الإنكار ولمتها فيه أعنف اللوم، وما أشك في أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد، ولام نفسه في مثل ما كنت ألوم نفسي فيه.

وقد زاد هذا الحمل ثقلًا على نفسه وعلى نفسي أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التي ألفها في الأيام الأخيرة من حياته في الأقاليم.

فكان يغدو إلى عمله مصبحًا ويروح إلى دار أبويه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد، ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يُلمُّون بدورهم إلا ليخرجوا منها، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل، وفي القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها، فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء؟ لقد رضي أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا، وابتهجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس، وكثيرًا ما رغَّبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الترغيب، وكثيرًا ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء، إنما هو